رؤية إسلامية
للمسئولية العالمية

أ.د.
محمود حمدي زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

أولا : مدخل : المسئولية المعاصرة .
ثانيا : المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الإسلام .
١) المسئولية فى نظر الإسلام .
٢) الإنسان خليفة الله فى الأرض .
٣) الصورة القرآنية للعالم .
(أ) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة .
(ب) حرية الإنسان ومصيره .
(ج) الإيمان والمسئولية .
(د) دوائر المسئولية .

رؤية إسلامية للمسئولية العالمية[1]

أ . د .
محمود حمدى زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

أولا - مدخل : المسئولية المعاصرة :

إذا تأملنا فى عالمنا المحيط بنا فإننا نلاحظ الكثير من التغيرات الأساسية التى طرأت عليه . ويرجع السبب فى ذلك إلى أننا نحن البشر قد تغيرنا . فبعد أن كانت كل أمة تعيش فى ظل حضارة واحدة خاصة بها ومحاطة بحمايتها ومستقرة تحت لوائها نجد أننا نعيش اليوم فى عالم متداخل الثقافات متشابك الحضارات .

وقد اهتزت القواعد القديمة للجماعات بصورة حادة وأصبح لزاما على

(١) أصل هذا البحث قدم باللغة الألمانية لملتقى الأديان فى سانت ميرجن - فرايبورج بألمانيا الغربية فى نوفمبر ١٩٨٦ م وقامت بنشره فى نهاية عام ١٩٨٧ م دار نشر هردر Herder الألمانية المعروفة تحت عنوان :
« Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht »
وذلك ضمن كتاب ضم بحوث الملتقى المذكور .

الجميع فى كل مكان فى عالم اليوم أن يوطنوا أنفسهم على التعايش مع أناس مختلفين فى حضارتهم وأديانهم اختلافا عظيما . فالجماعات التى كان ينظر إليها فى السابق على أنها جماعات غريبة ، أو لا يزال ينظر إليها أيضا حتى اليوم فى مناطق كثيرة من العالم على أنها جماعات غير منتمية أو حتى معادية - كما تؤكد ذلك الأحكام المسبقة التى لا تزال شائعة - لم يعد فى الامكان رفض هذه الجماعات بصفة عامة ، بل أصبح لزاما على المرء أن يبذل جهده فى فهمها وتقبلها على الأقل بدرجة معينة . وقد أصبح فعل ذلك أمرا ضروريا حتى يمكن تفادى الانهيار القاتل لسفينة هذا العالم .

والسؤال الذي يمكن أن يفرض نفسه فى هذا الصدد هو :

هل المطلوب إذن أن نكون فى مستوى « فوق الحضارة » - إذا صح التعبير - أى فى مستوى يرتفع فوق الحضارات الخاصة ، أم أن المطلوب هو أن نزداد تأصلا ورسوخا فى حضارتنا الخاصة التى يمثل الدين نواتها فى كل الأحوال ؟

ألسنا سوف نتبين فى الحالة الأخيرة أيضا أننا جميعا فى نهاية المطاف نضرب بجذورنا فى ذات الأرض ويرتفع نمونا عاليا تحت سقف سماء واحدة ؟

لقد تمت زحزحة الفرد فى العالم المعاصر إلى مستوى السطحية والعزلة عن طريق الصورة الآلية الميكانيكية والمادية للعالم بشكل لم يسبق له مثيل ، ويحاول الفرد الذى يعيش فى ظل هذه الظروف أن يعود مرة أخرى إلى جذوره فى حضارته الخاصة أو البحث عن إجابات عن الأسئلة التى تقلقه لدى الحضارات الأخرى .

ولكننا فى نهاية الأمر لن نستطيع العثور على ما ننشده من إجابات إلا إذا نهضنا لتحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقنا . وهنا يبرز سؤال هام هو :

أمام مَن ومن أجل مَن نحن مسئولون ؟ وكيف أتوصل إلى مسئوليتى تلك ؟

إن الإنسان المعاصر - الذى بات قلقا على مصيره - أصبح ينقض فى ليله ما قام بنسجه من أفكار فى نهاره ، كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا »(٢) أو كما كانت تفعل بنيلوبى Penelope فى الأسطورة اليونانية المعروفة »(٣) ويتمسك هذا الإنسان المعاصر - من ناحية - بحريته ، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يظفر بهذه الحرية إلا إذا تم ربطها بأصلها ، أى بخالقها وهو الله .

وينبغى أن يكون واضحا تمام الوضوح لكل إنسان عاقل أنه يجب علينا جميعا أن نسلك سلوكا مسئولا ، لأن السلوك غير المسئول يرتد إلينا فى نهاية فى أية صورة من الصور . فالعمل غير المسئول يترتب عليه فى عالمنا المعاصر كوارث مفزعة لا يمكن تفادى أخطارها ، نظرا لأنه قد أضحى عالما صغيرا اختصرت فيه المسافات وتطورت فيه وسائل الاتصال إلى درجة مذهلة .

---

(٢) سورة النحل ٩٢

(٣) يلاحظ أن هذا البحث قد أعد فى الأصل ليخاطب الأوربيين ومن هنا يأتى الاستشهاد أيضا بما هو معروف فى ثقافتهم .

وبنيلوبى المشار إليها كانت - كما ورد فى ملحمة هوميروس الشهيرة المسماة بالأوديسة ملكة وزوجة لأودوسيوس Odysseus ملك إيثاكا Ithaka . وكان هذا الملك قد خرج لمحاربة أعدائه فى طروادة وطالت غيبته حتى ظن أنه قد مات . وفى أثناء غيابه الطويل تقدم إلى زوجته بنيلوبى كثير من العشاق يطلبون الزواج منها قائلين إن زوجها لن يعود مرة ثانية . ولكنها وفاء منها لزوجها كانت تمنى كلا منهم بموافقتها بعد الانتهاء من نسج بساط كانت قد بدأت فى صنعه . وكانت فى الليل تقوم باستمرار بنقض كل ما نسجته فى النهار حتى تظل وفية لزوجها تنتظر عودته . وقد عاد أودوسيوس بعد ذلك وانتقم من كل العشاق الذين ضايقوا زوجته أثناء غيابه .

أجل ، إن الأمر قد يعنى فى بعض الأحوال انحلال العالم وانهياره . ومن هنا يدخل العالم أيضاً بمعنى من المعانى فى دوائر مسئولياتنا الكثيرة .

والأمل الذى كان يحلم به المثاليون فى كل العصور والذى يتمثل فى تحقيق الأخوة لكل البشر وتحقيق السلام للجميع - هذا الأمل قد أصبح اليوم يمثل بصفة عامة ضرورة تحظى بالاعتراف والتأييد بصورة لم تكن قائمة من قبل .

ولكن هل يعنى ذلك أننا قد اقتربنا حقا من تحقيق هذا الأمل أيضا ؟

وكيف يمكن للفرد أن يسهم بنصيب فى هذا الصدد ؟

إننا جميعا ، بوصفنا أعضاء فى المجتمع الكبير الذى هو العالم ، يعتمد بعضنا على بعض - كما هو واضح للجميع - ومن أجل ذلك فنحن مطالبون ، كل فى موقعه ، بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه .

ولكن كيف نفى بهذا المطلب ؟ وأين هى الصورة الكلية للعالم التى يمكن أن تشبع تطلعات العقل الحديث الذى ينقض باستمرار نسيج أفكاره . تلك الصورة التى من شأنها أن توجه كل فرد إلى مسئوليته بشكل محدد تمام التحديد ؟

وما معنى المسئولية عن العالم فى حقيقة الأمر ؟ وكيف يمكن أن يسهم الفرد بنصيب فى تحمل المسئولية عن العالم كله وهو الذى يتحمل بالفعل بدرجة كافية مسئوليته عن نفسه وعن أعماله أيضا ؟

إننا إذا نظرنا من منطلق مراقب خارجى إلى مسألة الربط بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فإنه يمكن الإجابة عنها ببساطة على النحو التالى :

إن كلا من هاتين المسئوليتين مرتبط بالآخر ، فكل منهما متضمن فى الآخر .

ونظرا إلى أن كل فرد منا عندما يتصرف حتى فى أخص خصوصيات أفعاله فإن تصرفه يكون فى داخل هذا العالم ولا يتم إطلاقا فى فراغ ، بمعنى أنه لا يتم فى مكان غير مرتبط بالعالم . ونظرا إلى أننا جميعا نعيش اليوم فى عالم مفتوح وفى مجتمعات تخضع لتأثيرات عالمية فإن المسئولية الذاتية تعد إذن - بمعنى معين - مسئولية عالمية . فكل تصرف فردى يجر وراءه دوائره الأخرى ، كما أن رفض التصرف يعد أيضا تصرفا وله نتائجه التى تترتب عليه .

ولكن هل الشعور المستمر بضرورة المسئولية العالمية يكفى وحده لإنتاج هذه المسئولية ؟

إن من الواضح أن الإجابة عن ذلك ستكون بالنفى ، وإلا فكيف يمكن أن يحدث فى عصرنا الراهن اقتراف أبشع أنواع الجرائم وأشد أعمال العنف منافاة للمسئولية والإنسانية على السواء باسم المسئولية عن العالم وباسم الأخوة بين البشر ؟

هل يوجد هناك اليوم طريق مستقيم - ليس فقط على المستوى النظرى بل على المستوى العملى أيضا - لسلوك مسئول مسئولية عالمية ؟

وعلى هذا النحو يمكن صياغة مشكلة المسئولية العالمية من منظور مراقب خارجى يرصد الأحداث . ولكننا لسنا مراقبين خارجيين لأننا نحن أنفسنا نقف فى وسط الأحداث .

فكيف يكون الوضع إذن من الداخل من خلال موقف فكرى ، أى من موقف كل فرد منا ؟

إن كل فرد منا عليه أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال . ومن الواضح أن هذا أمر يتطلب الصبر وطول النفس .

والإجابة عن هذا السؤال - بالنسبة لنا نحن المسلمين - تنبثق بطبيعة الحال من منظور إسلامى . ولكن ذلك لا يعنى منظورا محدودا أو صالحا فقط لجماعة معينة وإنما يعنى منظورا كليا شاملا . وهذا ماسنحاول توضيحه فى السطور التالية :

ثانيا : المسئولية المعاصرة عن العالم فى نظر الإسلام :

١ - المسئولية فى نظر الإسلام :

لعلنا نستطيع أن نقترب من الإجابة عن السؤال المطروح حول المسئولية عن العالم إذا تأملنا عن قرب كلمة مسئولية التى يدور الأمر هنا حولها .

إن الفعل سأل يعنى التوجه إلى طرف آخر بطلب أو مناشدة أو نداء يتطلب جوابا ولهذا يقال - كما فى القاموس المحيط - « أساله سؤله ومسألته قضى له حاجته » .

والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم للنبى صلى الله عليه وسلم : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان »[٤] .

وقد يكون النداء منبعثا من داخل الإنسان لا من خارجه . ومن الفعل سأل اشتقت كلمة المسئولية . وتحمل المسئولية على هذا يعنى إعطاء رد إيجابى على النداء الذى يتضمنه السؤال . والتحلل من المسئولية فى المقابل يعنى إعطاء رد سلبى على هذا النداء .

والمسئولية من الصفات التى تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل إلى مابعد انتهائه فى مراحل متدرجة على النحو التالى :

(٤) سورة البقرة آية ١٨٦ .

(ا) مرحلة ما قبل الفعل : وهى مرحلة نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل . والمسئولية هنا تنظر إلى المستقبل فهى مسئوليه تكليف ومطالبة .

(ب) مرحلة الإجابة لهذا النداء بالإيجاب أو بالسلب .

(ج) مرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة . وتأتى هذه المرحلة بعد الفعل . والمسئولية هنا تلتفت إلى الماضى فهى مسئولية استجواب ومحاسبة .

والإلزام الأدبى الذى ينطوى عليه نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل يعنى أن ذلك الشخص الذى يوجه إليه النداء له شخصيته المستقلة وله حريته فى القبول أو الرفض وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته . والمسئولية بهذا المعنى صفة تشريف لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة[٥] .

وإذا كان مفهوم المسئولية يتضمن - كما رأينا - الإجابة على النداء إيجابا أو سلبا فإن هناك العديد من الأسئلة التى تفرض نفسها عندئذ والتى تتمثل فيما يلى :

لمن أقدم هذه الإجابة ؟ ومن هو الذى ينادينى لأجيب نداءه ؟ وكيف أتوصل إلى تحديد مصيرى بنوع الإجابة ؟ وكيف أجيب ؟ وكيف ينبغى على أو كيف أستطيع أن أعرف فى حقيقة الأمر أنى أسلك بالفعل حال الإجابة سلوكا مسئولا ؟

(٥) راجع : دراسات إسلامية للدكتور / محمد عبد الله دراز ص ٥٢ وما بعدها - دار القلم بالكويت ١٩٨٠ ، وانظر أيضا كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص٣٩ - دار القلم بالكويت ١٩٨٣م

إننى إذا نظرت إلى هذا العالم بوصفه الحقيقة النهائية وليس بوصفه مجرد مرحلة أومقدمة لعالم آخر بعد هذا العالم فإنى لا أستطيع أن أجيب فى حقيقة الأمر على هذه الأسئلة .

فهذه الأسئلة تعد أسئلة غير قابلة للحل بالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم وعى دينى متفتح ، كما أنها تعد بالنسبة للكثيرين أيضا أسئلة لامبرر لها أوليس لها وجود حقيقى . وتتحول المسئولية الذاتية لديهم إلى مصلحة ذاتية وقتية أو إلى مصلحة الجماعة على أفضل تقدير . والمسئولية عن العالم بالنسبة لهم هى أيضا - على أفضل الفروض - مصلحة عالمية - ونظراً لأنهم محصورون فى نطاق الصورة المادية للعالم فإنهم لايستطيعون أيضا أن يستمروا فى طرح الأسئلة خارج هذا النطاق . وبذلك ينتمون إلى تلك الفئة التى وصفها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون »(٦) .

صحيح أن هناك كثيرين فى عالم اليوم على وعى بضرورة المسئولية العالمية المشار إليها ، تلك المسئولية التى يصادفونها يوميا فى حياتهم ، ولكنهم لا يثقون فى أية جهود لحل هذه المشكلة حلا جذريا بطريقة معقولة . وبدلا من ذلك ينادون بتصرف أو سلوك « عملى » ، ولكن دون ميل إلى البحث عن بواعثه عن قرب . تلك البواعث التى قد تكون مثاراً للشكوك .

وعلى العكس من الحيوانات فإننا نحن البشر لا نسير وفقا لغرائزنا ، فنحن كائنات عاقلة . وهذا يعنى أننا نتصرف بحرية بناء على تفكير ونسير طبقا لما تمليه علينا عقولنا . وهذه الكائنات العاقلة لاتتبع أى قائد بلا وعى

(٦) سورة الأعراف ١٧٩

كما هو الحال مثلا مع القطيع من الأغنام الذى يسير خلف قائد القطيع بلا وعى ويحذو حذوه حتى فى الوقوع فى الهاوية .

ونحن بأعمالنا نصنع مصيرنا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى »(٧) .

ونحن أحرار فى أن نسلك سلوكا عاقلا أو سلوكا غير عاقل وإذا أعملنا عقلنا الواعى وقلبنا الفاهم فإنه ينفتح أمامنا عالم جديد . ولكن إذا اعتبرنا عالم المادة هو الحقيقة النهائية ولم نحاول أن نحكم عقلنا وننظر إلى أبعد من ذلك فإننا سنظل حبيسين فيه أيضا وسيكون مصيرنا فى النهاية هو الضياع فيه .

ولكن هذا العالم المادى ليس هو الحقيقة النهائية بالنسبة الإنسان المؤمن . ومن هنا فإن الإجابة التى نبحث عنها تعد بالنسبة له أمراً ميسوراً واضحا تمام الوضوح . فالمسلم الثابت على عقيدته الراسخ فى إيمانه الذى لايسلم زمام أمره لهذا العالم وإنما يسلم أمره لله وحده لأنه هو الذى يهديه إلى سبيل الرشاد ومن أجل ذلك فهو سبحانه محل ثقته المطلقة - هذا المسلم يدرك بذلك أنه بسلوكه وأعماله كلها - سواء كانت أعمال القلب أو أعمال الجوارح - لايقدم إجابته (التى تتضمن مسئوليته الشاملة) لهذا العالم المادى وإنما يقدمها لله وحده - وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له »(٨) .

(٧) سورة الإسراء ١٣ - ١٥

(٨) سورة الأنعام ١٦٢ - ١٦٣

فالله وحده هو الحقيق بالتوجه إليه والاعتماد عليه وتفويض الأمر كله إليه ، فالمرجع والمصير إليه لأنه رب كل شيء :

« قـــل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »(٩) .

وهكذا فإن المطالبة بالمسئولية ـ فى نظر الإسلام ـ تعد مطالبة بتقديم إجابة بطريقة حرة . فكل إنسان فى موقعه وفى اللحظة المناسبة عليه أن يصوغ إجاباته (مسئولياته) فى حرية . وهنا تكمن الصعوبة أيضا فى تقديم إجابات جاهزة للآخرين . فالصلة بين الإنسان الفرد والله صلة شخصية مباشرة لا تحتاج إلى واسطة . ومن هنا فإن النموذج المثالى يرفض التقليد إلا إذا كان مبنيا على اقتناع . .

والإسلام يحث على الاستقلال فى الفعل ويؤكد النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى حينما ينهى عن التقليد فى قوله : « لا تكونوا أمعة : تقولون إن أحسن الناس أحسنا وأن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا »(١٠) .

فكل فرد عليه أن يبحث بنفسه عن الاجابات المناسبة بسلوكه المسئول . ولكن مشكلة الانسان المعاصر تكمن فى توقفه قبل الأوان عن طرح الأسئلة وفى اعتقاده أنه يملك بالفعل الاجابات التى يبحث عنها .

ونعيد مرة أخرى طرح السؤال الملح من جديد : كيف يقدم الانسان الاجابة الأصيلة بالسلوك المسئول ولمن يقدمها ؟

---

(٩) سورة الأنعام آية ١٦٤ .

(١٠) رواه الترمذى .

إن كل أمرىء يتأمل فى موقفه الانسانى متحررا من كل الأحكام المسبقة سيتضح له فى النهاية ببصيرة واعية كيف يسلك سلوكا مسئولا إذا لم يظل واقفا عند الاجابات الجاهزة المعطاه سلفا . فالانسان قد جىء به إلى هذا العالم من قوة خارجة عنه ، وهذه القوة هى التى تحفظه حيا وهى التى تخرجه مرة أخرى من هذا العالم إلى عالم آخر فى وقت مجهول لديه ـ وقد جاء القرآن الكريم للانذار والتبشير : « لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١١) .

ويوجه القرآن الكريم السؤال للكافرين قائلا : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ؟ »(١٢) .

إن هناك نداء موجها إلى الانسان ـ الذى يشعر فى ذاته بأنه مركز عالمه .

والموقف الدينى فى هذا الصدد يطلعنا على أن الجهة التى يصدر عنها هذا النداء هى فى الوقت نفسه تلك الجهة التى تجعل للسلوك الانسانى معنى . فما الذى نعرفه عن هذه الجهة ؟

إننى إذا رأيت صورة من الصور المرسومة أدرك أن شخصا ما قد قام برسمها ، فإذا تأملت العالم من حولى تأملا واعيا فإنى أرى فيه أثر الخالق . ولكن هذا أمر يحتاج إلى قلب فاهم وعقل واع . والاسلام لا يعرف مؤسسات وسيطة بين الله والانسان . فهناك فقط الوحى القرآنى الذى جاءنا عن طريق النبى محمد صلى الله عليه وسلم . والقرآن الكريم يقول لهؤلاء الذين يبحثون عن الهداية : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله

---

(١١) سورة الأحقاف آية ١٢ ـ ١٣ .

(١٢) سورة فاطر آية ٤٠ .

يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم »(١٣) .

٢ — الانسان خليفة الله فى الأرض :

وإذا كنا نتحدث عن المسئولية الشاملة فى نظر الاسلام فإن هذا يتطلب معرفة موقف الاسلام من قضية الحرب والسلام بصفة عامة ، ويقتضى معرفة دور الانسان نفسه فى هذا الكون حتى تتضح أمامنا معالم الصورة التى يرسمها الاسلام لتلك المسئولية الكلية .

إننا إذا تأملنا كلمة « إسلام » ذاتها فسنجد أنها مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ السلام . والاسلام فى جوهره دين جاء لينشر السلام فى العالم . وإذا كان قد شرع الحرب فإن ذلك يأتى فقط فى حدود خدمة هذا السلام وترسيخ قواعده . ومن هنا فإن الاسلام لم يشرع الحرب إلا لصد العدوان .

فالقتال فى سبيل الله — الذى كتبه الله على المؤمنين — لايجوز أن يوجه إلا ضد هؤلاء الذين يعتدون على المؤمنين ويمكرون عليهم صفو السلام ولا يجوز للمسلمين أن يبدأوا القتال . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »(١٤) .

والمسلمون ملزمون بوقف القتال ضد العدو إذا أبدى ميلا إلى السلام ، وذلك استجابة للأمر الإلهى فى قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »(١٥) .

(١٣) سورة الحديد آية ٢٨ .
(١٤) سورة البقرة آية ١٩٠ .
(١٥) سورة الأنفال آية ٦١ .

والإسلام لايكتفى بمنع العدوان ولكنه فى الوقت نفسه يطالب بالعمل الجاد لإقامة السلام والعدل ، فليس هناك طريق وسط بين الخير والشر . ومن ليس مع الله فهو فى الجانب المضاد لله . ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان »(١٦) أى وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

إن الحياة فى هذا العالم سريعة الزوال والشىء الذى يبقى هو العمل الصالح . ويصور لنا القرآن الكريم أمر هذه الحياة الدنيا أبلغ تصوير فى قوله تعالى :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »(١٧) .

ويقول القرآن فى سورة لقمان : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور »(١٨) .

فإذا أحببنا هذا العالم فينبغى أن نفعل ذلك ونحن على ذكر من أن كل الخيرات والطيبات التى نتمتع بها فى هذا العالم تأتينا من عند الله ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(١٩) .

(١٦) سورة النساء ٧٥
(١٧) سورة الكهف ٤٥
(١٨) سورة لقمان ٢٢
(١٩) سورة الإسراء ٧٠

وفضلا عن ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر للانسان كل شيء فى السموات والأرض لعل ذلك يكون داعيا له إلى التفكير فى هذه النعم التى لا تحصى ولا تعد . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٢٠).

ومن الأمور البدهية فى هذا الصدد أن هذه النعم الإلهية التى أنعم الله بها على الإنسان ترتبط بمطالبة الإنسان بألا يهمل خلق الله المسخر له ، بل يجب عليه أن يتحمل مسئوليته فى الاهتمام به والعناية بشأنه . ولهذا فإن مسئولية الإنسان عن هذا العالم تشمل الخلق كله ولا تنصب فقط على البشر ، بل تشمل أيضا الحيوان والنبات والأرض كلها . ومسئولية الإنسان إزاء هذا العالم وإزاء الخلق كله - الذى يعتمد عليه الإنسان أيضا - هذه المسئولية لا ينبغى أن تعرف حدوداً تقف عندها . ولذلك يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل »(٢١) .

ألا يعنى هذا أنه طالما نحن عاملون على هذا النحو والأمل يحدونا من أجل عالمنا أننا نسلك سلوكا مسئولا على مستوى المسئولية العالمية ؟

إن الإسلام إذ يطلب من المسلم التوجه إلى الله والخضوع لأمره فإن ذلك لا يعنى على الاطلاق الاعتزال عن هذا العالم أو الانسحاب منه ، بل

---

(٢٠) سورة الجاثية ١٣

(٢١) مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (انظر طبعة اسطنبول : الكتب الستة مجلد ٢٢).

على العكس من ذلك يقتضى هذا الطلب أن يأخذ الإنسان المسلم هذا العالم بوصفه مجالا لأداء مهمته فى هذه الحياة وبذلك يكون سلوكه على مستوى المسئولية العالمية .

فالإنسان - كما يشير القرآن الكريم(٢٢) - خليفة الله فى الأرض . وقد أعطى الله العقل للإنسان ليمكنه من أداء المهمة التى أنيطت به فى هذا العالم . والله الذى جعل الإنسان خليفة له فى الأرض هو رب هذا الإنسان . ومن أجل ذلك فله حق الطاعة المطلقة على الإنسان . وهذه الطاعة لله هى التى تحدد مصير الإنسان .

والقرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان عندما أضله الشيطان وأغواه وعصى آدم أمر ربه كان مصيره الخروج من الجنة ، وإحلال العداوة بين بنى البشر محل السلام والسعادة وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو »(٢٣) .

ثم اتجهت عناية الله مرة أخرى للإنسان الذى طرد من الجنة فغفر له وبين له طريق الهداية ووعد السائرين فى هذا الطريق بأحسن العواقب :

« فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٢٤) .

إن المؤمن الحق يقف بكليته فى الحاضر لا يخشى المستقبل ولا يحزن على الماضى ، وسلوكه سلوك هادف ومسئول وفعال . والمسئولية العالمية أمر لا ينفصل عن تكوين الإنسان وهى التى تميزه تميزا جوهريا عن بقية المخلوقات الأخرى ، فقد أبت هذه المخلوقات جميعها أن تتحمل أمانة التكليف والمسئولية بكل ما تحمل من معنى . فقد عرض الله سبحانه على جميع المخلوقات

---

(٢٢) سورة البقرة ٣٠

(٢٣) سورة البقرة ٣٦

(٢٤) سورة البقرة ٣٨

هذه الأمانة وتلك المسئولية ـ عرضها على السموات والأرض والجبال « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »(٢٥) .

وقد عقب القرآن على ذلك مباشرة بقوله عن الإنسان فى هذا الموقف « إنه كان ظلوما جهولا » . وقد تعجب الملائكة حين أخبرهم الحق تبارك وتعالى بإرادته التى قضت بجعل الإنسان خليفة فى الأرض فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ »(٢٦) ، وقد أجابهم الله سبحانه بقوله :

« إنى أعلم مالا تعلمون » . فقد علم الله آدم الأسماء كلها(٢٧) ومنحه عقلا يعرف به طبيعة الأشياء .

٣ ـ الصورة القرآنية للعالم :

(أ) العقيدة ووحدة البشرية : الوحدة فى العقيدة :

نحن جميعا ندرك مدى مايعانيه الانسان من التمزق أو الانشقاق الداخلى ويرجع السبب فى هذه المعاناة إلى أن الانسان من ناحية قد أبى إلا أن يتحمل المسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض بما يترتب عليها من تبعات ضخام فى إقامة العدل وإقرار الحق والالتزام التام بأمر الله ، ومن ناحية أخرى نجده واقعا تحت ضغوط عديدة من الشهوات والميول والنزعات وقصور العلم وقصر العمر وحواجز الزمان والمكان ، والتى تحول جميعها دون المعرفة الكاملة ورؤية ماوراء الحواجز والآماد . ومن هنا كان الانسان

(٢٥) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

(٢٦) سورة البقرة آية ٣٠

(٢٧) سورة البقرة آية ٣١ .

« ظلوما . لنفسه ، جهولا ، لطاقته(٢٨) . فكيف السبيل إلى حل هذا الإشكال ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد : « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم »(٢٩) .

فالله سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ويعلم خطرات النفس وما تخفى الصدور ـ لن يخفف عن الانسان ضغط هذه المعاناة إلا إذا اتجه إليه الناس فى كل سلوكهم وفكرهم وأعمالهم وعادوا مرة أخرى مقرين بربوبيته وحده سبحانه . ذلك الاقرار الذى هو مغروس أصلا فى فطرتهم . كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »(٣٠) .

والصورة القرآنية للعالم تشتمل على المؤمنين فى جانب والكافرين والمنافقين فى الجانب الآخر . يقول الله تعالى :

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة »(٣١) .

ولكن هاتين الجماعتين من المؤمنين والكافرين ليستا منفصلتين انفصالا تاما عن بعضهما البعض . فالطريق إلى الايمان مفتوح باستمرار أمام الجميع

(٢٨) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب ج ٥ ص ٢٨٨٤ وما بعدها — طبعة دار الشروق .

(٢٩) سورة الرعد الآية ١١ (٣٠) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٣١) سورة البقرة الآية ٢١٢ .

لأن الله غفور رحيم . وطريق الايمان مفتوح لكل الناس لأن هناك وحدة أساسية قائمة بين الناس جميعا . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الوحدة فى كثير من الآيات ، ففى سورة النساء مثلا نقرأ قول الله تعالى :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »(٣٢) .

ونظرا لأن الله قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة فإن المؤمن بطبيعته منفتح بصفة أساسية على العالم وعلى غيره من الناس الذين يشكلون الأجزاء الكثيرة الأخرى لذاته هو - إن صح التعبير - .

وهكذا يمكن القول بأن السلوك المسئول للإنسان يعنى خطوة متقدمة على طريق وحدة البشر وذلك بتحقيق معرفة هذه الوحدة فالجميع أبناء آدم .

ومعرفة الوحدة النهائية لكل البشر تسير جنبا إلى جنب مع تحقيق هذه الوحدة فى ترابط ووئام وحب متبادل مع إخواننا فى الإنسانية ويتمثل ذلك فى سلوكنا المسئول .

وبمعرفتى للوحدة الأساسية مع كل الناس - عن طريق ارتباط نفسى بنفوسهم وعن طريق انفتاح وعى الدينى - يتحول بذلك سلوكى إلى سلوك مسئول ، أى سلوك واع بمسئوليته مدرك لواجباتها .

والانسان المتدين تتحقق معرفته لوحدته مع كل البشر باستعادة معرفة ذاته فيهم واعتبارهم صنوا له ، وبالسعى المستمر - عن طريق السلوك المسئول - إلى التسامح والود وفهم الآخرين وفهم معاناتهم ، والصبر الذى لا يكل مع نفسه ومع الآخرين .

والمسئولية الذاتية - إذا فهمت فهما سليما - تعد دائما مسئولية ذاتية

(٣٢) سورة النساء آية ١ .

أمام الله وبهذا المعنى تعد أيضا مسئولية عالمية . فقد خلق الله الخلائق الكثيرة والشعوب العديدة لكى « يعرف » بعضهم بعضا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »(٣٣) .

ولو أراد الله سبحانه أن يجعل الناس جميعا أمة واحدة لفعل ، ولكنه أراد أن يختبر الخلق بهذه التعددية القائمة :

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن ليبلوكم فيما آتاكم »(٣٤) ،

وعلى الرغم من كل الاختلافات الكثيرة بين الناس فإنهم فى حقيقة الأمر متساوون وهم جميعا أمام الله سواسية كأسنان المشط ، وهم يتفاضلون فقط فى درجة التقوى :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٣٥) وفى الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس : ألا إن ربكم واحد ، وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر ألا بالتقوى »(٣٦) .

والإسلام يطلب منا أن نحقق وحدة الإنسانية وأن نخرجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود الفعلى ، وأن نتوصل إلى السلام بالأخوة فى العقيدة .

(٣٣) سورة الحجرات الآية ١٣ . (٣٤) سورة المائدة الآية ٤٨ .

(٣٥) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٣٦) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ٤١١ (المكتب الإسلامى للطباعة والنشر - بيروت) انظر أيضا سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٨٩ - طبعة أسطنبول للكتب الستة مجلد ١٤ .

ومسئوليتنا التعبدية فى الإسلام ـ المنبثقة من الهدف الكلى للخلق المتمثل فى العبادة كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة : « وما خلقت الجن والإنس ألا ليعبدون »(٣٧) ـ هذه المسئولية التعبدية تعد أيضا مسئولية عالمية تشمل كل المخلوقات ، والبشر منهم على وجه الخصوص بوصفهم خلفاء لله فى الأرض مثلنا ، وهم بذلك إخوة لنا .

(ب) حرية الإنسان ومصيره :

يشير القرآن الكريم إلى أننا لانستطيع أن نجبر أحدا من الناس على الإيمان بالله ، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يترك ذلك لإرادتهم الحرة . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ـ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ »(٣٨) .

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٣٩) . ولكن حرية الإنسان ليست حرية مطلقة . فالإنسان يستطيع أن يختار بين الخضوع لإرادة الله الذى خلقه أو البحث لنفسه عن أرباب آخرين . وفى هذه الحالة الأخيرة يكون مصيره الضياع والخسران . أما كون حرية الإنسان ليست بالحرية المطلقة فإن ذلك يرجع إلى أنها محددة عن طريق إرادة الله ، ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها ، فإرادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة .

حقا يقول القرآن الكريم : « كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله »(٤٠) . ولكن هناك بعض الإشارات التى تدلنا على كيفية فهم ذلك فهو سبحانه كما تقول تكملة الآية السابقة « أهل التقوى وأهل المغفرة » . فالله يطلب منا أن نخشاه ونتقيه وأن نمتثل لإرادته ، ولكنه فى

(٣٧) سورة الذاريات الآية ٥٦ .
(٣٨) سورة يونس الآية ٩٩ .
(٣٩) سورة الكهف الآية ٢٩ .
(٤٠) سورة المدثر الآية ٥٤-٥٦

الوقت نفسه هو الغفور الرحيم الذى بيده غفران الذنوب جميعا ماعدا الشرك : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء »(٤١) .

ومن ذلك يتضح لنا أن الله سيتجه بغفرانه وعفوه إلى كل من يتجه إليه ويلجأ إليه : « ادعونى أستجب لكم »(٤٢) « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان »(٤٣) أما من يتجه بكليته إلى هذا العالم المادى ويسلم قياده إليه ويعرض عن التوجه إلى الله فإنه بعمله هذا يكون قد حدد مصيره بنفسه :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »(٤٤) .

وإذا كان هذا هو مصير من اتجه إلى غير الله فإن للمؤمن مصيرا مختلفا ، لأنه يدرك بنور إيمانه وبصيرته مالا يدركه الجاحد . فالمؤمن يدرك أن أصله الحقيقى لا يكمن فى تجميع تصاد فى أوعشوائى لأية خلايا ، فهذه الخلايا ذاتها لا تستطيع بذاتها أن تخلق ذاتها فضلا عن أن تقوم بمثل هذا العمل التجميعى . والله وحده هو الذى خلقنا وخلق كل شىء وقدره تقديرا ، وهو الذى يحفظ حياة كل شىء ، إنه سبحانه ذو القدرة المطلقة التى يخضع لها كل شىء فى السموات والأرض ، والتى يتجه إليها الإنسان عندما تحيط به النوائب ومن أجل ذلك فلابد أن يكون مسئولا أمامها عن كل أعماله .

ويدرك المؤمن أيضا كذلك أن عالم المادة ـ الذى يمكن إرجاعه أيضا إلى الطاقة طبقا لأحدث النتائج التى توصل إليها علماء الطبيعة ـ لا يشكل الواقع الحقيقى . ومن أجل ذلك يدرك المؤمن أيضا أن الصراع من أجل أشياء هذا

(٤١) سورة النساء الآية ٤٨، ١١٦ .
(٤٢) سورة غافر الآية ٦٠ .
(٤٣) سورة البقرة الآية ١٨٦ .
(٤٤) سورة طه الآية ١٢٤ ـ ١٢٦ .

العالم المادى ـ هذا الصراع الذى يؤلب الناس ضد بعضهم بعضا ويجعلهم متعادين ـ يعد صراعا انتحاريا. فنحن ندمر أنفسنا إذا أخذنا أشياء هذا العالم المادى على أنها الهدف الأخير .

وبدلا من أن نخسر ذاتنا فى هذا العالم ونبيع له أنفسنا لنصبح مستعبدين لأشيائه ينبغى علينا ـ على العكس من ذلك ـ أن نبيع هذا العالم الأرضى فى سبيل العالم الآخر وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » (٤٥) .

وهكذا نرى أن الجهاد فى سبيل الله هو فقط لهؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . فهناك إذن طريقان فحسب أمام الإنسان : طريق الخير وطريق الشر . فإذا لم نجاهد فى سبيل الله فنحن نجاهد فى سبيل الشر . وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة فى وضوح تام فى قول الله تعالى :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت »(٤٦) .

ولكن إذا قلنا إن هذا العالم لا ينطوى على شىء يمكن اعتباره هدفا نهائيا فليس معنى ذلك أن الإسلام يحتقر هذا العالم . فالأمر على العكس من ذلك تماما . فهذا العالم الذى خلقه الله وأنعم به علينا هو مجال التزاماتنا وهو مسئوليتنا ، فطريقنا إلى الله يمر عبر هذا العالم .

أما الصياغة الإسلامية للمسئولية الذاتية وللمصير الذاتى للانسان فتعبر عنها الآية الكريمة : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » (٤٧) فالانسان مطلوب منه أن يجاهد فى سبيل الله ، وهو فى ذلك لا يتحمل إلا مسئولية عمله .

(٤٥) سورة النساء الآية ٧٤ .
(٤٦) سورة النساء الآية ٧٦ .
(٤٧) سورة النساء الآية ٨٤ .

ويدخل ضمن هذه المسئولية الذاتية وهذا المصير الذاتى للانسان اعتبار الآخر صنوا لنا نحب له ما نحب لأنفسنا ونكره له ما نكره لأنفسنا طالما كان هذا الآخر مشاركا لنا فى الجهاد فى سبيل الله ومن أجل خير هذا العالم . ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٤٨) .

(ج) الإيمان والمسئولية :

إن المؤمن الذى يبحث لنفسه عن السبيل إلى ترسيخ عقيدته وتعميقها والحفاظ عليها باستمرار ينبغى عليه أن يفعل الشىء ذاته بالنسبة لإخوانه فى العقيدة . ومن هنا تتضح مسئولية الذين وهبهم الله العلم والمعرفة فى تبصير غيرهم وتنوير طريقهم . والإسلام من أجل ذلك يقارن جهود العلماء بدماء الشهداء ، فقد ورد فى حديث شريف : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء »(٤٩) .

وهذا الموقف الذى يتخذه الإسلام إزاء العمل العلمى لا يفهم إلا إذا أدرك المرء أن العلم فى الإسلام يجب أن يكون مرتبطا ارتباطا وثيقا باستمرار بالاستعداد الحقيقى لتحمل مسئولياته .

والملاحظ فى عالم اليوم الذى وصل فيه التقدم العلمى إلى درجة مذهلة ـ أن غياب المسئولية الأخلاقية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا ، وفى التقدم بصفة عامة يؤدى إلى أخطار عظيمة تهدد البشرية كلها بالدمار .

(٤٨) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٦٧ (انظر الكتب الستة مجلد ٤ طبعة اسطنبول) .
(٤٩) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٣٧ ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (١٩٦٨) . وقد رواه ابن الجوزى فى كتاب العلل (راجع فيض القدير مجلد ٦ ص ٤٦٦ ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢) .

وفى تاريخ حياة العلماء المسلمين - سواء كانوا علماء فى الدين أو فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو فى الطب أو فى أى مجال آخر من مجالات العلوم - يرى المرء أنهم كانوا دائما حريصين على التوقف عن أعمالهم عندما يحين وقت الصلاة ليقوموا بأدائها حتى يظلوا فى صلة دائمة مع الله تذكرهم بمسئولياتهم الملقاة على عاتقهم ، فالعلم ينبغى أن يكون مرتبطا على الدوام بالأخلاق . والعقيدة والأخلاق متلازمان لا انفصام بينهما ويشكلان وجهان لعملة واحدة . وقد لخص النبى صلى الله عليه وسلم رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٥٠) .

ومن هذا المنطلق يعد الموقف اللا أخلاقى أو الالحادى لبعض العلماء فى العصر الحديث والذى أنتج عالما يسوده الرعب والفزع - يعد موقفا مرفوضا من العالم المسلم . والمطلوب من العالم المسلم - على عكس الموقف المشار إليه - هو أن يوجه جهوده العلمية نحو السعى فى نشر السلام فى العالم باعتبار ذلك غاية نهائية لهذه الجهود العلمية ، ويتحقق ذلك بالجهاد فى سبيل الله ضد نفسه وضد الظلم ، وبعبارة أخرى يتحقق ذلك بالجهادين الأصغر والأكبر .

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام لا يعنى رفضا لهذا العالم أو تخليا عنه . فالاتجاه المطلق إلى الله والتسبيح المستمر والتقديس الدائم من الأمور التى تختص بها الملائكة . أما الإنسان فإنه مطلوب منه أن يسلم نفسه لله ، ومن ناحية أخرى مطلوب منه أيضا أن يمارس وظيفته فى هذا العالم بوصفه خليفة الله فى الأرض . ومن أجل ذلك أصبح متفوقا على الملائكة الذين طلب الله منهم لذلك أن يسجدوا لآدم(٥١) .

والناس جميعا - بالنسبة للمسلم الملتزم بعقيدته - يعدون إخوة بصفة

---

(٥٠) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

(٥١) انظر سورة البقرة الآية ٣٤ .

أساسية ، غير أن المنافقين والكافرين قد عزلوا أنفسهم بأنفسهم من هذه الأخوة . فقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، أى لكى يحاول كل منهم أن يفهم الآخر ويحترمه ، والفرق الوحيد الذى له اعتباره فى هذا الصدد يتمثل فى درجة التقوى . فأفضل الناس لدى الله هو أكثرهم عدلا وأكثرهم صلاحا ، أى أتقاهم(٥٢) .

والإيمان الشكلى لا يدخل صاحبه فى عداد المؤمنين الحقيقيين . ومن هنا يقول القرآن الكريم فى شأن هؤلاء الشكليين : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »(٥٣) .

فعلامات الإيمان الحق هى تلك التى وردت فى سورة البقرة فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »(٥٤) .

وأعمال الإنسان لا تذهب سدى ، فالله سبحانه يعلم كل شىء . وكل أعمال الإنسان مسجلة له أو عليه ، ونتيجة هذه الأعمال تعود على صاحبها فى نهاية الأمر إن خيرا فخير وإن شرا فشر : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها »(٥٥) .

والسؤال الملح فى هذا المقام هو : كيف يجد المؤمن طريقه فى عالمنا المعاصر ، وكيف يتحمل مسئوليته العالمية المعاصرة فى عالم توجه إليه فيه من شتى الجوانب مطالب والتزامات مختلفة أشد الاختلاف .

---

(٥٢) انظر سورة الحجرات الآية ١٣ . (٥٣) سورة الحجرات الآية ١٤ .

(٥٤) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

(٥٥) سورة الجاثية آية ١٥ (انظر أيضا سورة الاسراء الآيات ١٣ - ١٥ وسورة فصلت آية ٤٦) .

لقد جاء القرآن الكريم ليبين للمؤمنين الطريق المستقيم ويوجههم إلى سبيل الهدى والرشاد، فهو رحمة وشفاء. كما جاء فى قوله تعالى :

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »(٥٦) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن معيار التفاضل بين الناس يتمثل فى درجة التقوى. وتتمثل هذه التقوى فى أن يتجه المؤمن إلى عبادة الله الذى خلقه، وأن يرجو غفرانه ورحمته، وأن يتجه إليه بالتوبة، وأن يدعوه ويلجأ إليه فى كل وقت فالله دائما على استعداد لأن يجيب دعاء من يدعوه .

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم على لسان صالح عليه السلام :

« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب »(٥٧) .

وحياة المؤمن كلها ينبغى أن تكون عبادة متواصلة وذكرا مستمرا لله فذلك هو طريق الفلاح : « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »(٥٨) .

ومن هنا يعطى الإسلام للممارسة العملية للعقيدة فى حياة الناس ومعاملاتهم اليومية نفس الأهمية التى يعطيها للأسس الخمسة التى يقوم عليها الإسلام وهى الشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام.

ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »(٥٩) .

وهكذا لا يجوز قصر مفهوم العبادة فى الإسلام على المعنى الضيق الذى يعنى أداء الشعائر الدينية المعروفة . فكل عمل يقوم به المسلم فى حياته اليومية

(٥٦) سورة الاسراء آية ٨٢ .
(٥٧) سورة هود الآية ٦١ .
(٥٨) سورة الجمعة الآية ١٠ .
(٥٩) سورة الأنعام الآية ١٦٢ .

ـ دينيا كان هذا العمل أم دنيويا ـ يعد عبادة طالما قصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد .

ومن هذا المنطلق نجد الإسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة، تقديرا من الإسلام لقيمة العمل الذى لا تقوم الحياة إلا به .

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »(٦٠) .

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل هذا عابدنا. فقال عليه السلام: ومن يؤكله؟ قالوا : كلنا يؤكله. فقال عليه السلام : « كلكم خير منه »(٦١) .

(د) دوائر المسئولية :

ومن خلال موقف التقوى هذا يتجه المؤمن إلى هذا العالم ، ويحاول كل فرد فى موقعه بوصفه خليفة الله فى الأرض ـ أن يسلك سلوكا مسئولا معتمدا فى ذلك على ثقته الكاملة فى الهداية الالهية الرحيمة .

وما يمكن أن يطلق عليه الدائرة المركزية للمسئولية أو المحور الذى تدور عليه المسئولية يتمثل فى المسئولية الذاتية .

ولكن الإسلام لا يطلب من المسلم ما هو فوق طاقته . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٦٢)

(٦٠) سورة الجمعة الآية ١٠ .
(٦١) راجع : معالم الثقافة الإسلامية للدكتور / عبد الكريم العثمان ص ١٤٩ مؤسسة الرسالة ١٩٧٢ .
(٦٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

وفى حديث شريف يتحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن مسئوليتنا عن كل مانملكه ماديا وأدبيا . فقد روى الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لاتزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » (٦٣) .

والإنسان لايستطيع تحمل مسئوليته تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة إلا إذا تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليمة . والتزامات الإنسان تجاه المجتمع الإنسانى ليست التزامات مفروضة عليه من الخارج وإنما هى التزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لايجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية . فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لايجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى . والإنسان الذى يتنكر لالتزاماته الخلقية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة الإنسانية . ونظرا إلى أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج إلى المجتمع الإنسانى فإن هذه الحالة بالنسبة له تعد أمرا مميتا . ولهذا يبدو أمرا غريبا وموقفا متناقضا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية ويحاول التهرب منها (٦٤) .

وهكذا لايجوز بأى حال من الأحوال أن يتجاهل المرء أو يتجاوز حقوق الآخرين ومالهم عليه من التزامات . وفى بعض المواقف يتوجب على المرء أن يشهد على نفسه لصالح غيره حتى يكون عادلا أمام الله . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

(٦٣) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٦١٢ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ١٤)
(٦٤) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٤٠ .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » (٦٥) .

وقد تحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن دوائر المسئولية فقال :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » (٦٦) .

والقرآن الكريم يربط ربطا واضحا لالبس فيه ولا غموض بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فى قوله تعالى :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعا » (٦٧) .

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى إنسان مع قيمة البشرية كلها ، لأن الإنسان من حيث هو إنسان بالنسبة للمؤمن يعد خليفة لله . فالله قد نفخ من روحه كما يقول القرآن الكريم :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٦٨) .

وإذا لم أعرف ذاتى فى نفسى على حقيقتها - والتى لاتتمثل بأى حال من الأحوال فى الجانب المادى - فإننى لن أستطيع أن أعرف الذات فى الآخرين ، بل سيكونون بالنسبة لى وجودا ماديا . وفى ظل هذه الظروف يكون المرء فى صراعه مع الآخرين حول ماديات الحياة مستعدا لازاحتهم من طريقه بتدمير حياتهم .

(٦٥) سورة النساء الآية ١٣٥ .
(٦٦) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ (الكتب الستة طبعة أسطنبول مجلد ١)
(٦٧) سورة المائدة الآية ٣٢ .
(٦٨) سورة الحجر الآية ٢٩ .

أما إذا سلك المرء سلوكا مسئولا مسئولية ذاتية فإنه سيسلك فى الوقت ذاته سلوكا مسئولا مسئولية عالمية. فكلاهما مرتبط بالآخر وكلاهما مكمل للآخر.

ومن ذلك يتضح أن موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السلبية. فليس يكفى أن يعمل الإنسان الخير أو أن يمتنع عن فعل الشر، بل يجب أن يكون له موقف إيجابى تجاه الظلم. فلا يجوز لنا أن نسكت عندما نرى الظلم يقع على إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد، بل يجب علينا أن نساعد المضطهدين والمظلومين - وما أكثرهم فى عالم اليوم - وذلك بقدر ما نستطيع وأن نحاول إنقاذ من وقعوا فى محنة أو من حلت بهم كارثة. ومن أجل ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم:

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (٦٩).

ويقول أيضا: « انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قيل: كيف أنصره ظالما؟ قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره » (٧٠).

والمطلوب منا إذا أردنا ألا نكون من الخاسرين هو أن نتحلى بالإيمان والسلوك القويم وأن نتواصى جميعا بالحق والصبر. وفى ذلك جاءت سورة العصر تضع أمامنا هذه الحقائق لتكون دستور حياتنا ودليل سلوكنا: « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ».

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقد ورد عن الإمام الشافعى قوله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم (٧١)

(٦٩) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٦٩ (الكتب الستة - أسطنبول مجلد ٤).

(٧٠) رواه البخارى والترمذى وأحمد (انظر فيض القدير جـ ٣ ص ٥٨ دار المعرفة بيروت ١٩٧٢).

(٧١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ص ٥٤٧ - دار المعرفة بيروت ١٩٦٩.

فما هو هذا الحق وما هو هذا الصبر؟ لقد تكفلت آيات القرآن بتوضيح المقصود من ذلك فى مواضع كثيرة نكتفى منها هنا بموضعين اثنين فقط كمثال لما نود الإشارة إليه.

فقد جاء فى سورة الكهف بصدد الحق قوله تعالى:

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٧٢).

وجاء فى سورة النحل بصدد الصبر قوله تعالى:

« واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (٧٣).

ويمكن فهم السلوك العالمى المسئول على خير وجه إذا نظرنا إلى الناس جميعا فى عالم اليوم بوصفهم جماعة واحدة تستقل سفينة واحدة تمخر بهم عباب البحر. فمصيرهم مشترك.

ومن أجل ذلك يجب عليهم أن يتفادوا أى خلل يمكن أن يتسبب فى إعطاب السفينة وإغراقها. وقد صور النبى صلى الله عليه وسلم مثل هذه الحالة تصويرا رائعا حين قال:

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (٧٤).

أ . د

محمود حمدى زقزوق

(٧٢) سورة الكهف الآية ٢٩. (٧٣) سورة النحل الآيتان ١٢٧-١٢٨.

(٧٤) صحيح البخارى جـ ١ ص ٦٩ (الكتب الستة - أسطنبول مجلد ٤).